

عسير في قلوب

ملوك آل سعود (*)

أ. د. غيثان بن علي بن جريس

دراسة منشورة في كتاب : دراسات في تاريخ وحضارة جنوبي البلاد السعودية.
لغيثان بن جريس (الرياض: مطابع الحميضي، ١٤٣٤ هـ / ٢٠١٣ م). (الجزءان
الأول والثاني)، ص ص ٤٦٩ - ٤٨٦ .

الدراسة الثالثة عشرة

عسير في قلوب ملوك آل سعود

(١) نشرت هذه الدراسة في رسالة آفاق الجامعية التي تصدرها جامعة الملك خالد ، وكان نشرها في عدد (٤٤) شهر ذي الحجة (١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م) .

إذا نظرنا في أوضاع منطقة عسير خلال القرنين الماضيين ، وجدناها تمتد وتتنحصر في حدودها الجغرافية وأهميتها السياسية ، وكانت تقع في أغلب الأحيان بين مناطق زهران والقنفذة شمالاً ، وجازان ونجران جنوباً^(١). وتعاقبت عليها قوى سياسية عديدة بدأت بأمرآء آل المتحمي (١٢١٥ - ١٢٣٣ هـ / ١٨٠٠ - ١٨١٨ م) المواليين للدولة السعودية الأولى^(٢) ، وحكم المنطقة بعدهم قوى سياسية محلية ، أشهرها أسرة آل عائض (١٢٤٩ - ١٢٨٩ هـ / ١٨٣٣ - ١٨٧٢ م)^(٣)، ثم العثمانيون الذين سيطروا على البلاد حوالي نصف قرن من الزمان (١٢٨٩ - ١٣٣٧ هـ / ١٨٧٣ - ١٩١٨ م)^(٤)، وأخيراً جاء الإمام عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود في عام (١٣٣٨ هـ / ١٩١٩ م) فضم بلاد عسير مع غيرها من مناطق شبه الجزيرة العربية تحت راية دولة عصرية موحدة باسم (المملكة العربية السعودية)^(٥). واستمر أولاده من بعده يحافظون على هذا الإرث

(١) انظر، على أحمد عسيري. عسير من (١٢٤٩/١٨٣٣م - ١٢٨٩هـ/١٨٧٢م). (أبها: نادي أبها الأدبي، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م)، ٢٣ وما بعدها ، أحمد يحيى آل فائع. دور آل المتحمي في مد نفوذ الدولة السعودية الأولى في عسير وما حاورها (١٢١٥ - ١٢٣٣هـ/١٨١٠ - ١٨١٨م) (الرياض: مطابع الحميضي، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م)، ١٩ وما بعدها.

(٢) آل فائع، ١٣٧ وما بعدها.

(٣) عسيري، ٢٣ وما بعدها.

(٤) غيثان بن علي بن جريس. صفحات من تاريخ عسير (الرياض: مطابع العبيكان، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م) ١+٢/٩١ - ١٢٠، ٢٣٥ - ٢٧٤.

(٥) عبد الله الصالح العثيمين. تاريخ المملكة العربية، عهد الملك عبد العزيز (الرياض: مطابع العبيكان، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م)، ١٧٣ وما بعدها،

التاريخي المجيد الذي خلفه لهم والدهم ، كما عملوا بجد وإخلاص في الحفاظ على ريادة هذه البلاد في الدفاع عن العقيدة الإسلامية في كل مكان ، وكذلك المشاركة في جميع المحافل الدولية السياسية والاقتصادية والحضارية المختلفة ، مؤكدين للعالم أن دولتهم دولة حب وسلام ، وتآخ ونصرة للمظلوم على الظالم^(١) .

أما بلاد عسير خلال التاريخ الطويل (ق ١٢ هـ - ق ١٥ هـ / ق ١٨ م - ٢١ م) فقد لعبت دوراً بارزاً في المجال السياسي ، إذ كان أهلها أول من رحب بالدعوة السلفية في جنوب شبه الجزيرة العربية ، ثم عملوا على نشرها ومحاربة سواها^(٢) . كما تصدوا للغزاة الخارجين كالعثمانيين الذين جاؤوا إلى البلاد ، وإلى عموم الجزيرة العربية بقيادة محمد علي باشا للقضاء على أئمة الدعوة السلفية وقادتها متمثلة في حكام الدولة السعودية الأولى (١١٥٧ - ١٢٢٣ هـ /

(١) هذه السياسة هي التي ذكرها ولا زال يقولها ملوك آل سعود منذ نشأت دولتهم حتى الآن ، والسجلات والوثائق والمصادر المتنوعة مليئة بأرائهم وأقوالهم التي تدور في فلك حبهم للسلام ، وخدمة الإسلام والمسلمين في جميع أقطار الأرض .

(٢) للمزيد عن تاريخ الدعوة السلفية وانتشارها في جنوب شبه الجزيرة العربية انظر آل فائع ، ٩٩ وما بعدها ، عبد الله العثيمين . بحوث وتعليقات في تاريخ المملكة العربية السعودية (الرياض : مكتبة التوبة ، ١٤١١ هـ / ١٩٩٠ م) ، ٥٠ ، عبد الله أبو داهش . الحياة الفكرية والأدبية في جنوب البلاد السعودية (١٢٠٠ - ١٣٥١ هـ / ١٧٨٥ - ١٩٢٢ م) . أبها : نادي أبها الأدبي ، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م) ، ٤١ وما بعدها .

١٧٤٤ - ١٨١٧ م^(١). ورغم تمكنه من القضاء على كثير من نفوذ تلك الدولة الصالحة، فإن أحفاد آل سعود الأول، وسكان عسير وأعيانها بقوا على قلب رجل واحد في محاربة الظلم، والتصدي لأي عدوان خارجي، أو مخالف لمذهب أهل السنة والجماعة. وكانت فترة النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر الميلادي)، والعقود الأولى من القرن الرابع عشر الهجري (العشرين الميلادي) مليئة بالصراعات الأهلية والقبلية، بالإضافة إلى هيمنة الأتراك على أجزاء عديدة من الجزيرة العربية لعدة عقود، إلى جانب ما ساد البلاد من فوضى واضطراب، وعدم وجود من يجمع شتات الأمة تحت راية واحدة، حتى جاء الإمام عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل، فأسس حكومة ثابتة الدعائم بسطت نفوذها على أغلب بلاد الجزيرة العربية، وجمعتها تحت راية واحدة شعارها كلمة التوحيد (لا اله إلا الله محمد رسول الله)^(٢).

وإذا كانت منطقة عسير قد غدت جزءاً من دولة الملك عبد العزيز في عام (١٣٣٨هـ/١٩١٩م)، فإنها في أساسها كانت موالية لحكام آل سعود خلال عصر الدولتين السابقتين الأولى (١١٥٧ - ١٢٣٣هـ/١٧٤٤ - ١٨١٧م)، والثانية

(١) العثيمين، تاريخ، ١٩١/١ وما بعدها، عسيري، ١٨٣ وما بعدها.

(٢) العثيمين، تاريخ ٨١/٢٢ وما بعدها، محمد بن عبد الرحمن الخميس، عناية الملك عبد العزيز بالعقيدة السلفية ودفاعه عنها (الرياض: مطابع الناشر العربي، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م)،

٨٨ وما بعدها.

(١٢٥٦ - ١٣٠٩هـ / ١٨٤٠ - ١٨٩١م). وهذا ما جعل الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود يولي هذه المنطقة الغالية عناية فائقة، فاختر لها العديد من الأمراء الحكماء الذين ساسوا أهلها على منهج كتاب الله وسنة رسوله (صلى الله عليه وسلم)، ومحاربة كل ما يخالف هذين المصدرين من بدع وخرافات كما عمل على إنشاء معظم المؤسسات الحكومية التي يحتاجها المواطنون العسيريون في تسيير أمورهم وحفظ بلادهم وأنفسهم، بل حرص أيضا على إنشاء المؤسسات التعليمية و الثقافية مدركاً أن التربية والتعليم هي الأساس في بناء أجيال واعية و مثقفة . ولو أردنا حصر كل ما تم إنجازه من تطور و تنمية في تلك المنطقة خلال عهد الملك عبد العزيز، لتطلب الأمر عدة مجلدات تتضمن جميع مظاهر التطور التي طرأت على هذه البلاد في عهد ذلك المؤسس الصالح^(١).

وجاء من بعده أبناؤه الملوك سعود، وفيصل، وخالد، وفهد، وعبد الله، فكان لكل واحد منهم لمسات واضحة و جليلة على منطقة عسير، ونذكر في هذه الإمامة الموجزة النماذج القليلة من بصمات هؤلاء الملوك الأخيار:

(١) غيثان بن علي بن جريس ، عسير في عصر الملك عبد العزيز (دراسة تاريخية للحياة الإدارية والاقتصادية) (جدة : دار البلاد للطباعة والنشر ، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م) ، ٤٣-٢١ ، للمؤلف نفسه . أيها حاضرة عسير (دراسة وثائقية) (الرياض: مطابع الفرزدق ، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م) ، ٦٠ .

١- تولى الملك سعود بن عبد العزيز الحكم حوالي إحدى عشرة سنة (١٣٧٣ - هـ ١٣٨٤/١٩٥٣ - ١٩٦٤م) واصل خلالها برامج والده في الارتقاء بالشخصية السعودية فكرياً واجتماعياً واقتصادياً ودينياً ، والمتأمل في ملامح التنمية التي ظهرت في عصره في منطقة عسير يدرك حاجته إلى مئات بل آلاف الصفحات كي يسطر فيها مظاهرها التعليمية والاجتماعية والعمرانية والاقتصادية وغيرها . وحرصاً منه - رحمه الله - على تفقد أحوال رعيته ومشاركتهم أفراحهم وأتراحهم فزارها مرتين في عامي (١٣٧٤هـ/١٩٥٤م) و (١٣٧٨هـ/١٩٥٨م)^(١) ، وكان في كل مره يتوج زيارته بافتتاح العديد من المشاريع التنموية التي أنجزت في عهده، ومن أهمها على سبيل المثال مطار أبها الذي أنشئ عام (١٣٧٧هـ/١٩٥٧م)، وغيره من المشاريع التي تزخر بها الوثائق و المؤلفات التاريخية المختلفة^(٢).

٢- الملك فيصل بن عبد العزيز (١٣٨٤ - ١٣٩٥ هـ / ١٩٦٤ - ١٩٧٥م)، راعي دعوة التضامن الإسلامي. هذا الملك الشهيد يقترن اسمه بتاريخ منطقة عسير الحديث، فهو الذي قاد الجيوش في عهد والده عام (١٣٤٠هـ/١٩٢١م) حتى

(١) مع العلم أن الملك سعود قد زار المنطقة الجنوبية في عهد والده أكثر من مرة ، ومن أهم تلك الزيارات قيادته الجيوش السعودية من نجد حتى نجران ، وتصديه للجيوش اليمنية في منطقة نجران وهزيمتها عام (١٣٥٢ هـ / ١٩٣٤م) . للمزيد انظر ، العثيمين ، تاريخ ، ٢٨١/٢ .

(٢) ابن جريس ، أيها حاضرة عسير ، ٤٢١ وما بعدها .

دخل مدينة أبها، ورسم الخطط الرئيسية لحفظ الأمن و الاستقرار في هذه البلاد. كما قاد جيوشاً أخرى لوالده في عام (١٣٥٢هـ/١٩٣٤م) اجتاز بها تهامة عسير إلى جازان وأجزاء من بلاد اليمن ثم واصل جهوده المباركة تجاه بلاد عسير بعد أن صار ملكاً، فزارها عام (١٣٩٢هـ-١٩٧٢م) وتفقد أحوال أهلها وسعى إلى حل مشاكلهم، مفتتحاً أثناء تلك الزيارة مدينة الملك فيصل العسكرية، وبدا حريصاً كل الحرص على أن يُعيّن الولاة و المسؤولين الأكفاء على إدارة هذه البلاد وسياستها وقيادتها على منهج الركائز الأساسية التي وضعها المؤسس الأول، الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل . وفي عام (١٣٩١هـ/١٩٧١م) أصدر قراره بتعيين ابنه الأمير/ خالد الفيصل أميراً على منطقة عسير، فأحسن الاختيار، وأهدى إلى هذه المنطقة هذا الأمير الذي سهر على حفظ أمنها وتطويرها في جميع المجالات حوالي (٣٦) سنة^(١). وحين يقف المؤرخ المنصف على تاريخ منطقة عسير الحضاري منذ جاء ابن الفيصل أميراً عليها إلى اليوم، يلحظ كما هائلاً من الحقائق المدونة في الوثائق و السجلات، تتطوي على ما بذل في تطوير هذه المنطقة، ويعود الفضل فيها إلى الله - عز وجل - أولاً ثم إلى الملك فيصل (رحمه الله) الذي آثر تلك المنطقة بأمر له من الشمائل والفضائل والمآثر ما يجعله أمير القلوب وراعي النهضة العسيرية التي لا ينكرها أحد .

(١) العثيمين ، تاريخ ، ٢ / ١٧٨ ، ٢٨٣ .

٣- الملك الصالح خالد بن عبد العزيز (١٣٩٥ - ١٤٠٢هـ / ١٩٧٥ - ١٩٨٢م)، استمر في النهج الفيصلي تجاه منطقة عسير، فشد على يد أميرها، خالد الفيصل، بالدعم المادي والمعنوي، والرأي السديد في تطوير هذه البلاد. وكان من أهم المشاريع التتموية التي قامت في عصر هذا الملك الفاضل، النواة الأولى لجامعة الملك خالد ففي عام (١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م) تم إنشاء فرعين لجامعتي الإمام محمد بن سعود الإسلامية، والملك سعود في مدينة أبها، وكانت كليات الشريعة وأصول الدين، واللغة العربية و العلوم الاجتماعية، والتربية، والطب وكلية المعلمين هي اللبنة الأولى للتعليم الجامعي في المنطقة^(١). والناظر إلى جامعة الملك خالد اليوم يجدها تضم حوالي (٥٠-٦٠) كلية متخصصة، وفي عام (١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م) أنشئ كرسي الملك خالد للبحوث العلمية^(٢) ، الذي من أهم اختصاصاته تشجيع البحوث العلمية التاريخية والاجتماعية الفكرية والحضارية، وخاصة ما يتعلق بعصر الملك خالد (رحمه الله). كما أنشئت في عصره بمنطقة عسير العديد من المعاهد والمراكز التدريبية والفنية التي تقوم على قبول الطلاب وتدريبهم فنياً ومهنياً حتى يكونوا أعضاء صالحين في المجتمع. ومن حرص الملك خالد واهتمامه بمنطقة عسير، زارها مرتين في عام (١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م) و (١٤٠١هـ / ١٩٨١م) التقى فيهما بالمواطنين العسيريين، واستمع إلى مشاكلهم،

(١) المرجع نفسه ، ١٠٣-١١٧

(٢) وكاتب هذه السطور له الشرف أن يكون أول رئيس لهذا الكرسي الخاص بالدراسات والبحوث العلمية .

وسعى في حلها ، بل أمر بالعديد من المشاريع ، وافتتح مشاريع أخرى تم الانتهاء من إنجازها ، وكان من أهمها في زيارته الثانية (١٤٠١هـ / ١٩٨١م) تدشين محطة كهرباء عسير المركزية ، وافتتاح كلية الشريعة وأصول الدين بفرع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في أبها^(١) .

٤- خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز (١٤٠٢ - ١٤٢٦هـ / ١٩٨٢ - ٢٠٠٥م) ، الذي يصعب علينا حصر ما تم إنجازه في منطقة عسير خلال عصر هذا الملك الراحل (يرحمه الله) . وكوني شاهد عيان لمنطقة عسير قبل وأثناء توليه الحكم ، فلقد حدثت ثورة تنموية في المنطقة عمت جوانب كثيرة مثل ، الحياة العمرانية ، والإدارية ، والتعليمية ، والصناعية ، والاقتصادية وغيرها . كما تحسنت أوضاع الفرد المعيشية والسكنية ، ومن يعود إلى الدراسات الكثيرة التي خرجت عن هذا الحاكم وبخاصة في احتفال العشرينية عام (١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م) ، والتي أقيمت بمناسبة مرور عشرين عاماً على توليه الحكم ، فإنه يدرك بحق ما أنجز من أعمال ومشاريع في المملكة العربية السعودية بشكل عام وفي منطقة عسير بشكل خاص^(٢) .

(١) أحمد الدعجاني . خالد بن عبد العزيز . سيرة ملك ونهضة مملكة (مكان النشر وتاريخ النشر بدون ، ١٤٢٢هـ) ، ٤٢١ .

(٢) لم تتأخر جامعة ، أو إدارة تعليم ، أو إمارة ، أو أي مؤسسة إدارية في الدولة إلا وقدمت بعض الدراسات والإحصائيات عما تم إنجازه في تلك الإدارة أو الوزارة أو المؤسسة في عهد الملك فهد (يرحمه الله) .

٥ - خادم الحرمين الشريفين الملك عبد الله بن عبد العزيز (١٤٢٦ هـ - حتى الآن / ٢٠٠٥ م - حتى الآن) ، هذا الملك الصادق الذي نذر جهده وحياته لخدمة رعيته فامتألت شعاب قلوبهم إعجاباً به وحباً له ، وعبروا عن ذلك بشكل واضح وعلني في مجالسهم العامة والخاصة . ولا عجب إن الملك عبد الله (وفقه الله) قد تعلم في مدرسة والده وإخوانه الملوك سعود ، وفيصل ، وخالد ، وفهد (رحمهم الله جميعاً) ، ولا يزال يقود السفينة على النهج نفسه وعلى الأسس التي قام عليها حكمهم وحكوماتهم ، وهو تحكيم كتاب الله وسنة رسوله (صلى الله عليه وسلم) .

وإذا كان الملك عبد الله قد قضى في سدة الحكم فترة وجيزة ، فإن مآثره على منطقة عسير كثيرة جداً . فهو قريب منها ومن أهلها منذ كان ولياً للعهد ، والراصد لزيارته التاريخية للمنطقة عام (١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م) ، وما قام به الأهالي من فرحة وابتهاج بقدمه يلمس دليلاً على قربه من الشعب وقرب الشعب منه^(١) ، وقام آنذاك بزيارة لبعض أسر المنطقة مثل:- أسرتي آل مشيط وآل أبو ملححة في الخميس إكراماً لأجدادهم على ما قدموا من خدمات جليلة في عهد

(١) لقد شاهدت فرحة الناس وابتهاجهم بقدمه ، فلم يتركوا وسيلة من الوسائل إلا وعبروا من خلالها عن سرورهم وفرحهم بقدمه ، كما وفد على مدينة أبها مئات الآلاف من أفراد وقبائل عسير ، فأقاموا بها عدة أيام يقدمون فيها الأهازيج والرقصات الشعبية تعبيراً عن فرحهم بوجود هذا الضيف الكريم (الأمير عبد الله بن عبد العزيز) في منطقتهم .

والده أثناء توحيد البلاد. كما افتتح بعض المشاريع الهامة في المنطقة، ووجه بإنفاذ العديد منها، ومن أهم تلك المشاريع وضع حجر الأساس في الفرعاء (القرعاء سابقاً) لجامعة الملك خالد^(١). وزار منطقة عسير^(٢)، بعد أن أصبح ملكاً للبلاد، وهو يسير على النهج نفسه الذي سار عليه والده وإخوانه من قبل، بل النهج الذي اتبعه في حياته، وهو الحرص على تفقد أحوال رعيته و مساعدتهم وحل مشاكلهم. وبالأمس القريب زار معظم مناطق المملكة من الجوف، إلى المنطقة الشرقية، فالقصيم، ومكة والمدينة، وأخيراً الطائف و الباحة، ولازال يواصل جهوده وعطاءه في مسيرة التنمية. ثم جاء إلى عسير يعيش مع أهلها ويشاركهم أتراحهم وأفراحهم، و ذهب إلى جازان وغيرها من المناطق^(٣).

(١) ومن فضائل الملك عبد الله بن عبد العزيز يوم كان أميراً عندما وضع حجر الأساس لجامعة الملك خالد، أنه أعلن أمامه يوم الحفل أن تكون الجامعة باسمه (جامعة الأمير عبد الله)، فقام بين الناس أثناء الحفل وأعلن رفضه أن تكون الجامعة باسمه (جامعة الأمير عبد الله)، وإنما يجب أن تحمل اسم أخيه (الملك خالد)، ومنذ ذلك اليوم أصبح اسمها بهذه الصيغة (جامعة الملك خالد) (يرحمه الله).

(٢) زيارته لمنطقة عسير كانت بتاريخ (١٣.١١ / ١٠ / ١٤٢٧هـ الموافق ٢٠٠٦/١١/٣١م).

(٣) إن حكم الملك عبد الله بن عبد العزيز خير وبركة على جميع مواطني المملكة، فلقد أصدر العديد من القرارات التي تصب في مصلحة الفرد، فزاد في رواتب الشعب (١٥/)، وخصم في أسعار الوقود وبخاصة الغاز والبنزين، وأجرى إصلاحات كثيرة راعي فيها راحة المواطنين والمقيمين، وبخاصة الفقراء منهم. وهذه الأعمال لا تصدر إلا من رجل امتلأ قلبه بالإيمان والعطف والحنان، كما لا نجد لها إلا عند الولاة والخلفاء الصالحين الأوائل.

هذا ولم تقتصر رعاية العسيرين ، والارتقاء بحياتهم وتطويرها على الملوك السعوديين- أكرمهم الله - إنما تجاوزتهم إلى بقية الأمراء الذين يترددون على بلاد عسير بين الفينة والأخرى، ويصل عطاؤهم إلى الفرد و المجتمع، بل يتولى البعض منهم تمويل بعض المشاريع التنموية والخيرية، و يشاركون المواطنين في أفراحهم واحتفالاتهم، و يفتتحون بعض المشاريع العملاقة التي ترعاها الدولة في نواحي عديدة من البلاد. ويأتي في مقدمة هؤلاء الأمراء، الأمير سلطان بن عبد العزيز، ولي العهد نائب رئيس مجلس الوزراء ، ووزير الدفاع و الطيران و المفتش العام(رحمه الله) الذي كان يقدم إلى المنطقة في كل عام مرة وأحياناً مرتين أو ثلاثاً ، وفي كل مرة يأتي حاملاً من البشائر ما يثلج الصدر ويبهج النفوس. وكذلك الأمراء نائف، وعبد الرحمن، وسلمان، وأحمد أبناء عبد العزيز وغيرهم ممن يحرصون على زيارة منطقة عسير وتفقد أحوال سكانها، ومساعدتهم بقدر استطاعتهم. ولا ننسى ما يبذله أمير المنطقة سابقاً خالد الفيصل، وأميرها الحالي فيصل بن خالد من جهود في ترجمة سياسة الدولة في خدمة المواطن العسيري و النهوض بمستواه في شتى الميادين .

(*) ونخلص في هذه الورقة إلى العديد من النتائج والتوصيات، منها :

أ ■ : بلاد عسير هي جزء من بلاد تهامة والسراة الممتدة من اليمن إلى الحجاز ، والتي يطلق على أغلبها قديماً مخلاف جرش ، هذه البلاد المأهولة بالسكان والتي يوجد بها جميع مقومات الحياة الاجتماعية والاقتصادية والحضارية . فهي منطقة ذات تاريخ عريق منذ حضارات سبأ ومعين وقتبان وحمير ، ثم جاء عصر الإسلام ،

فقدم إليها بعض صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونشروا الإسلام بين أهلها ، وحطموا الأوثان والأصنام التي كانت في بلادهم ، وأقاموا الأذان والإقامة في أوطانهم ، وتصدوا لمن أعلن ارتداده في عهد الخليفة الراشد أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) ، كما خرج منهم من ساهم في ميادين الفتوحات الإسلامية المبكرة الأولى وشاركوا في القادسية ، واليرموك، وجولاء ، والنهروان . بل خرج بعض رجال هذه البلاد فاستقروا في الأمصار الإسلامية بالشام، ومصر، وبلاد المغرب، والأندلس ، والعراق، وبلاد فارس ، وبلاد ما وراء النهرين فعملوا وساهموا في بناء الحضارة العربية عبر العصور الإسلامية المبكرة والوسيطة .

بـ استمر العسيريون في أوطانهم يتعايشون مع الأوضاع السياسية والحضارية داخل الجزيرة العربية . والناظر في المصادر الإسلامية ، وبخاصة ما يتعلق ببلاد الحجاز واليمن، منذ القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي إلى القرن الثاني عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي يلحظ أن بلاد عسير الواقعة بين حواضر اليمن والحجاز الكبرى كانت شبه مستقلة في نظام حياة أهلها ، حيث كان أعيانها وشيوخها هم أصحاب السلطة والنفوذ في بلادهم ، وقد ذكر أوضاعهم وهيمنتهم بعض الرحالة المسلمين الأوائل أمثال :الهمداني ، وناصر خسرو ، وابن جبير ، وأخيرا ابن المجاور من أهل القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي الذي قال عنهم :- ((يحكم على كل قرية شيخ من مشائخها ، كبير القدر والسن، ذو عقل وفطنة ، فإذا حكم بأمر لم يشاركه ولم يخالفه أحد فيما يشيره عليهم ، ويحكم فيهم ، وجميع من في هذه الأعمال لم يحكم عليهم سلطان ، ولا يؤدون خراجاً ، ولا يسلمون قطعة ، إلا كل واحد منهم مع هوى نفسه ، بهذا لا يزال القتال دأبهم ، ويتغلب بعضهم على مال بعض ،

ويضرب قرابة زيد على أموال عمرو ، وهم طوال الدهر على هذا الفن ، وهم في دعة الله وأمانه ، وهم فخوذ يرجعون إلى قحطان وغيرهم من الأنساب))^(١) ويذكر أيضاً ((..... أنهم قبائل وفخوذ من العرب ليس يحكم عليهم سلطان ، بل مشايخ منهم وفيهم وهم بطون متفرقون))^(٢).

ويضيف ابن المجاور بعض التفاصيل عن المنطقة الممتدة من نجران حتى الطائف بما فيها منطقة عسير، فيقول ((جميع هذه الأعمال قرى متقاربة بعضها من بعض في الكبر والصغر ، وكل قرية منها مقيمة بأهلها ، كل فخذ من فخوذ العرب ، وبطن من بطون البدو في قرية ، ومن جاورهم لا يشاركونهم في نزلها وسكنها أحد سواهم))^(٣) . فهذه طبيعة أهالي عسير ومن جاورهم في العصور القديمة ، الاستقلال وعدم الرضوخ لأي قوة أو سلطة خارجية .

(١) جمال الدين يوسف بن المجاور. صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز المسمى تاريخ المستبصر . تحقيق لوفغرين (ليدن: مطبعة بريل، ١٩٥١ - ١٩٥٤) ، ج ١ ، ص ٢٧ وما بعدها . للمزيد عن ما ذكر بعض الرحالة عن بلاد السراة بما فيها منطقة عسير، انظر غيثان بن علي بن جريس. دراسات في تاريخ تهامة والسراة خلال العصور الإسلامية المبكرة الوسطية . من ق ١ - ق ١٠هـ / ق ٧م - ق ٦م) (الرياض: مطابع العبيكان ، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م) ج ١ ، ص ٩٣ - ١٢٨ ، ١٢٦ - ١٦٤ ، ١٩٧ - ٢٤٨ .

(٢) ابن المجاور ، ج ١ / ص ٢٦ ، انظر أيضاً ابن جريس ، دراسات ، ج ١ ، ص ٢٠٤ .

(٣) ابن المجاور ، ج ١ / ص ٢٦ ، للمزيد انظر: أبو معين الدين ناصر خسرو. سفرينامة (رحلة ناصر خسرو) ترجمه إلى العربية وحققه أحمد خالد البدلي (الرياض: عمادة شؤون المكتبات بجامعة الملك سعود ، ١٩٨٣م) . ص ١٤١ - ١٤٢ .

ج . هناك دويلات وقوى سياسية ظهرت في اليمن أمثال: الزيدية، والنجاحية، واليعفرية، والإسماعيلية، والزيدية، والصلحية، والرسولية، والحاثمية، والمهدية، والزريعية وغيرها في اليمن، وكذلك طبقات وإمارات الأشراف المتتالية في الحجاز. ومعظم هذه القوى كانت ذات صلات سلبية وإيجابية مع بعضها البعض. بل كان بعضها يسعى إلى مد نفوذه إلى بلاد عسير، لكنهم لم يقدروا على ذلك، وإن استطاع بعضهم لفترة وجيزة فإنهم يعودون إلى بلادهم خاسرين دون أن يحققوا من مطامعهم ما يستحق الذكر، وكان لإخفاقاتهم المتكررة أسباب من أهمها:

١- صعوبة تضاريس منطقة عسير وانعزالها، والمشاهد لجبال ووهاد وهضاب وأودية هذه البلاد يدرك مدى صعوبتها وبخاصة أن الحروب والجيوش قديماً كانت تسير على المنهج التقليدي القديم من حيث نوعية السلاح المستخدم، وكذلك المشي على الأقدام، أو استخدام الدواب مثل: الحمير والجمال.

٢- شراسة أهل هذه البلاد وعدم رغبتهم في الخضوع لأي غاز والحرص على استقلالهم. ونلمس في الوثائق العثمانية ما عانى العثمانيون وواجهوا من متاعب أثناء قدومهم إلى بلاد عسير في أواخر القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي. ثم إن أعيان القبائل وشيوخها كانوا يشجعون قبائلهم وعشائرتهم على التصدي لأي عدو خارجي مهما كان نوعه أو قوته أو جنسه.

٣- المعروف أن المذهب الشافعي هو السائد عند أهل عسير منذ العهود الإسلامية المبكرة، وبقي هكذا حتى ظهور الدعوة السلفية وانتشارها في

ربوع منطقة عسيروما جاورها من بلاد تهامة والسراة . والناظر إلى الهوية العقدية لعدد من الدويلات التي ظهرت في اليمن ، و سعى بعضها إلى السيطرة على منطقة عسير ، كالدولة الصلحية الإسماعيلية ، و الدولة الزيدية. يراها تختلف اختلافاً غير يسير عن مذهب العسيريين الذين كانوا أصحاب عقيدة خالصة نابعة من كتاب الله وسنة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، فهم لا يقبلون بدخول أي معتقد آخر إلى بلادهم ، وقد سعى بعض أئمة الزيدية ، وكذلك الحكام الصلحيون إلى مد نفوذهم إلى بعض أوطان عسير لكنهم لم يفلحوا لما واجهوه من بسالة أهلها وشجاعتهم وتصديهم لكل من يسعى إلى الاستيلاء على أجزاء من بلادهم.

■ والسؤال الذي يطرح نفسه ، لماذا انقادت بلاد عسير وأهلها لحكام آل سعود وأئمتهم ؟ الإجابة تتلخص في مبادئ الدعوة السلفية التي سار عليها أئمة آل سعود الأوائل ، حيث كانت صافية خالصة من الشوائب متوافقة مع المبادئ والمعتقد الذي كان يعتقد ويدين به أهالي عسير، وإذا كان دعاة الدعوة السلفية قد واجهوا بعض الصدود من بعض العسيريين ، فإنهم سرعان ما أثروا فيهم فانقادوا لدعاة تلك الدعوة . والناظر في وضع العسيريين السياسي والحضاري أثناء حكم الدولة السعودية الأولى ، وإمارة آل المتحمي يجد أنهم كانوا من أوائل المناضلين الحريصين على نجاح تلك الدعوة ودولتها ، بل تجدهم ساهموا سياسياً وعسكرياً وبشكل جاد وملموس في نشر مبادئ الدعوة السلفية في جميع أنحاء بلاد تهامة والسراة الممتدة من الحجاز إلى اليمن . بل تصدوا مع آل سعود الأوائل لبعض الغزاة الخارجين عن الجزيرة العربية وبخاصة محمد علي باشا ومن جاء معه من الأتراك .

■ وإن بقيت منطقة عسير خلال القرن الثالث عشر والثالث الأول من القرن الرابع الهجريين يسودها الانفلات الأمني والحروب والفوضى فهذه صفة سائدة على عموم

الجزيرة العربية ، وذلك لعدم وجود إدارة أو حكومة مركزية تسوس البلاد ، وهذا ما تحقق في عهد الإمام عبدالعزيز بن عبد الرحمن آل سعود الذي استطاع أن يوحد أطراف البلاد تحت راية واحدة تحمل اسم المملكة العربية السعودية ، وتسير تحت مظلة مؤسسات وأجهزة حكومية عصرية تسوس البلاد ، وأصبح القانون المستمد من شرع الله كتاباً وسنة هو القائد والرائد والحكم والسياسة التي سار عليها أولاده وأحفاده من بعده حتى اليوم .

وعلى الباحث أن يرصد هذه التحولات التي جرت على بلاد عسير بل على عموم الجزيرة العربية وبخاصة جنوبها ، ونحن من هذا المنبر الكريم ننادي الباحثين والمؤرخين أن يدركوا الفقر العلمي الذي تعيشه مكتبتنا ومراكزنا العلمية مما يتعلق بهذه الأوطان الغالية على قلوبنا ، وإنني أهيب بكل الدارسين أن يولوا هذه الديار جزءاً من اهتماماتهم العلمية ، ونحن على يقين كامل أنها لازالت بكرةً إن صح التعبير في جميع مجالاتها المعرفية وليست التاريخية أو الأدبية أو الفكرية فحسب ، ومن يلتفت إلى كثير من الموضوعات المتفرعة في تخصصاتها ومواضيعها فسوف يجد بها جديداً . ونحن في عهد الدولة السعودية الحديثة ، والحمد لله ، أصبحت ظروفنا أفضل بكثير من العهود السابقة ، فقد توفر لنا في ظل حكومتنا الرشيدة الكثير والكثير من مقومات الرقي والاستقرار ، من أمن في الأوطان ، وصحة في الأبدان ، ومراكز وجامعات ومعاهد علمية تضم عشرات التخصصات ، وآلاف الأساتذة المتخصصين ، وغيرها من المشجعات التي تجعل طالب العلم في ظروف أحسن من ذي قبل ، وبالتالي يطلب منه المساهمة والعمل في كل ماله فائدة ونفع لتنمية البلاد وتطورها والارتقاء بمستوى أهلها في شتى المجالات .

وأخيراً، فهذه عجالة سريعة أوضحنا فيها أبرز ملامح الحياة الحضارية في عسير، والرعاية التي وجدناها ولا زلنا نجدها ونشاهدها في هذه المنطقة من الحكام السعوديين ، وليست عسير إلا إمارة تشاركها أخواتها في ربوع المملكة نهضتها وازدهارها في ظل قيادة تقف أمامها كلمات الإعجاب خجلى مما يوجب علينا السمع و الطاعة، والعمل بجد و اجتهاد في تحقيق المواطنة، و الحرص على عمل كل ما يعود على ديننا و بلادنا ومقدساتنا بالصلاح و النمو والتطور. واللّهُ من وراء القصد.